وجدت في معض بحثنا عن الوسواس السوداويّ في الطب العربي في القرون الوسطى وهو موضوع دكتورات أحضرها تنويهاً بمخطوطة في البيبليوغرافيا لفوات سيزغين وفي كتاب *Die Medizim im Islam* لمانفيرد ولمان. وذلك يتعلق بمقالة ألفها ابن ماسويه بعنوان "المرّة السوداء".ابن ماسويه هو طبيب عاش في نهاية القرن الثامن واللنصف الاول من القرن التاسع الميلادي، أي في قلب حركة الترجمة التي كانت ببغداد أبّان القرن التاسع الميلادي. لا يوجد الا نسخة واحدة من هذه المخطوطة وهي محفوظة في مكتبة Astan Quds Razawi التي تَقع في مدينة مشهد في ايران. وبعث لي مسؤول قسم المخطوطات نسخة إيلكترونية من هذه المخطوطة. فيسعدني ان أقدّم لكم هذه المخطوطة وأتمنى ابراز أهميتها.

تتألف هذه المخطوطة من٢١ صفحة بالاضافة ألى صفحة البداية التي تحمل عنوان المقالة ووصفات ضد ضعف القلب. تتشكّل مقالة ابن ماسويه من بابين. في الباب الاول يبيّن ابن ماسويه صنفين من المرة السوداء اللذين يميّزهما جالينوس في عدة كتب. الصنف الاول هو الخلط الاسود الطبيعي الذي يشبه عكر الدم وثقله، والصنف الثاني هو المرة السوداء المؤذية للجسم. يعتمد الجزء المخصّص للمرة السوداء الرديئة على كتاب المرة السوداء لجالينوس. في الباب الثاني يميّز ابن ماسويه اربعة اصناف من المرة السوداء الرديئة بحسب الخلط الذي تَولدت المرة منه عن طريق احتراقه.

هذه المخطوطة مثيرة للاهتمام من ثلاثة وجهات نظر:

١. اولا: بسبب مؤلفها. لعب ابن ماسويه دوراً أساسياً في تطور الطب العربي في القرون الوسطى كمساهم في عصر النقل للنصوص العلمية اليونانية، و لانه كان طبيباً سريرياً.

٢. ثانيا: بسبب مصدرها. الجزء الاول من المخطوطة هو مختصر كتاب المرة السوداء لجالينوس. هكذا تؤكد هذه المقالة لابن ماسويه اهمية هذا الكتاب لجالينوس وتأثيره على الطب العربي فيسمح لنا بان نتقدم في دراسة مصير هذا الكتاب عند العرب، بينما ترجمات هذا الكتاب من اللغة اليونانية الى العربية مفقودة. بالاضافة الى ذلك، تبرز هذه المخطوطة ان الاطباء العرب ورثوا من اليونانيين مفهوما متناقضا الى حدّ ما حول المرة السوداء . في الحقيقة يقول كتاب المرة السوداء لجالينوس و مقالة المرة السوداء لابن ماسويه إنّ ما يولّد المرة السوداء هو الحرارة واليباس وهذا التحليل يعارض مفهوم المرة السوداء الذي كان اكثر انتشاراً في الطب اليوناني والعربي، وهو ان المرة السوداء مرتبطة بنظام بارد يابس.

٣. ثالثا: بسبب مضمون المخطوطة. يبرز الجزء الثاني مميّزات جديدة للمرة السوداء. من المعروف أنّ المرة السوداء هي خلط من الاخلاط الاربعة التي تشكّل نظام الصحة والمرض الابقراطي. اذا ازدادت كمية المرة السوداء في البدن تحدث عدة امراض بينها الوسواس السوداوي أي المالينخوليا وهي كلمة مأخوذة من اللغة اليونانية. تغيّر مفهوم المرة السوداء في تاريخ الطب اليوناني والعربي فمن مقالة ابن ماسويه يمكننا ان نفهم هذه التغيّرات فهماً احسن. نرى هنا لاول مرة عملية تحوّل الاخلاط الاربعة الى المرة السوداء اذا احترقت هذه الأخلاط.

نريد في البداية ان نتفحّص مصادر مقالة ابن ماسويه. كما قلنا سابقا المصدر الرئيسي هو كتاب المرة السوداء لجالينوس الذي يعتمد عليه ابن ماسويه في الجزء الاول، حتى اذا لم يذكر اسم الكتاب او اسم جالينوس. كان هذا الكتاب لجالينوس مشهورا عند الاطباء كما تدلّ على ذلك الترجمات التي نفّذت خلال عصر الترجمة. ذكر حنين ابن اسحاق في الرسالة التي نشرها Bergträsser في عام ١٩٢٥ انه ترجم كتاب المرة السوداء لجالينوس الى العربية. ولاحظ انّ مترجماً اسمه ستيفانوس قد ترجمَه الى العربية سابقاً. يشير حنين أيضاً الى ترجمة الى السريانية قام بها ايّوب الرهاوي. هذه الترجمات كلها مفقودة اليوم. من الممكن ان ابن ماسويه اطّلع على واحدة من هذه الترجمات.
إضافة إلى الترجمات تعتمد بعض الكتب الطبية العربية الاخرى على كتاب المرة السوداء لجالينوس. يذكر الرازي في كتاب الحاوي كتاب المرة السوداء لجالينوس ثلاث مرات. اضافة الى ذلك نَجد في آخر كتاب الكُنّاش في الطب الذي ألفه الكسكري في القرن العاشر الميلادي مختصراً كتاب المرة السوداء لجالينوس. وألف في القرن العاشر الميلادي الطبيب قسطا ابن لوقا مقالة اخرى موضوعها المرة السوداء وتعتمد على كتاب المرة السوداء لجالينوس ايضاً. وهذه المقالة موجودة في مخطوطة واحدة محفوظة في المكتبة الملكية في مونيخ، المانيا.

من المهم ان نثبت بشكل واضح ان ابن ماسويه يعتمد على كتاب جالينوس.
ودليلنا الاول هو قائمة مميزات المرة السوداء في بداية المقالة.

ابن ماسويه، المرّة السوداء، مخطوطة مشهد طبّ ٥٢٢٢ ص.٢-٣

وأما المرة السوداء الخارجة من الطبيعة المؤذية لها، فخواصها خلاف خواص المرة السوداء الطبيعية المسماة الخلط الاسود وذلك ان طعمها طعم عفص حامض. ولها خاصية ثانية أنها تقرح جميع الاعضاء التي تمر بها. ولها أيضاً خاصية

ثالثة، أنها إذا لاقت الارض غلت الارض بها وانتفخت، وفعله فيها كفعل الخلّ لها ولها خاصّيّة رابعة أن الذباب والبعوض والهوامّ والحيوان كله إذا شمّها هرب منها، تنحّى عنها ولم يدن منها. ولها خاصّيّة خامسة ان في خروجها هلاكاً للبدن .

يصف ابن ماسويه المرة السوداء باستخدام نفس الخاصيات المحسوسة التي أوردها جالينوس في كتابه: الخاصية الولى أن المرة السوداء عفصة الطعم وحامضة والخاصية الثانية أنها تقرِّح جميع الاعضاء التي تمر بها و الخاصية الثالثة انها اذا وقعت على الارض غلت الارض بها كما يفعل الخل الرقيق. الخاصية الرابعة ان الذباب والبعوض يبتعد عنها واخيراً الخاصية الخامسة ان طرح المرة السوداء مضرٌ للجسم. تجدر الملاحظة هنا ان الخاصيتين الثانية والخامسة ليستا موجودتين في أي كتاب من كتب جالينوس، إلا في كتاب المرة السوداء.

الدليل الرئيسي الذي يبرز ان مصدر المقالة هو كتاب المرة السوداء لجالينوس هو مفهوم المرة السوداء. تتعلق المرة السوداء، في مخطوطة مشهد، بنفس العوامل الطبيعية التي ذكرها جالينوس وهي الحرارة واليباس. لم نجد هذا الارتباط في أي كتاب غيره. يقال عادةً في النصوص اليونانية والعربية ان المرة السوداء باردة يابسة. وشدد متخصص الطب الابقراطي جاك جوانا على خصوصية الكتاب المرة السوداء لجالينوس في مقالة عنوانها: "المرة السوداء والماليخوليا عند جالينوس: هل كتاب المرة السوداء اصلي؟". في رأي جاك جوانا هذا السؤال مبرر بسبب الفرق بين مفهوم المرة السوداء في هذا الكتاب بالمقارنة مع الكتب الاخرى لجالينوس. اسهب ابن ماسويه في التكلم عن ان الحرارة واليبس يولدان المرة السوداء.

ابن ماسويه، المرّة السوداء، مخطوطة مشهد طبّ ٥٢٢٢، ص.٣

وأما لسبب المولّدة للمرّة السوداء والعلة لها هو الحرارة المفرطة واليبس المفرط.

لذلك تتولد المرة السوداء عند شخص لونه غامق وساكن في بلد حار، وعند الشباب لان مزاجهم حار، بينما نجد احيانا في النصوص الطبية اليونانية والعربية أن ضَحاياها هم الكبار في السنّ لان مزاجهم بارد. فالمرة السوداء كثيرة لا سيّما عند الحياونات الحارة واليابسة المزاج مثل السباع، كما يقول ابن ماسويه مقتبساً من جالينوس في المقطع التابع.

ابن ماسويه، المرّة السوداء، مخطوطة مشهد طبّ ٥٢٢٢، ص.٤

الدليل أيضا ان الطحال وعى المرة السوداء، إنا نرى لون الطحال اسود وخاصة في الحيوانات التي مزاجها حار يابس كالسباع.

استعمل ابن ماسويه هذا التعريف للمرة السوداء في العلاجات التي ينصح بها في الجزء الثاني من

المخطوطة. مثلاً يجب ان نخرج دما اكثر لما نفصد الشباب ولما نفصد سكان البلدان الحارة لان نسبة المرة السوداء في جسمهم اعلى.

من المهم ان نلاحظ ان كتاب المرة السوداء ليس المصدر الوحيد لابن ماسويه هنا. نجد في بداية المقالة تمييزاً بين الخلط الاسود الطبيعي والمرة السوداء الخارجة من الطبيعة. وهذا التمييز ليس موجودا في كتاب المرة السوداء لجالينوس. في هذا الكتاب يميّز جالينوس المرة السوداء المحترقة المؤذية عن الاشياء السوداوية التي ليست الخلط الاسود. التمييز بين الخلط الاسود الطبيعي و المرة السوداء الخارجة عن الطبيعة موجود في كتاب جالينوس في القِوى الطبيعية وجوامع الإسكندرانيين لكتاب في القوى الطبيعية و في الاعضاء الآلمة. ومن ثمّ انتشر هذا التمييز بين العرب.

الجوامع الإسكندرانيين لكتاب جالينوس في القوى الطبيعية، نشر فؤاد سزكين، الجزء الثاني، ص.٢٩ـ٣٠

المرة السوداء صنفان أحدهما طبيعي و الآخر غير طبيعي، فالسوداء الطبيعية يقال لها الخلط الأسود والخلط السوداوي، والسوداء الخارجة من الطبيعة هي المحترقة، ويقال لها المرة السوداء مطلقة وعلامات هذه المرة أنها حامضة جداً ولو أنها سوداء، وأنها إذا وقعت على الارض فعلت بها ما يفعله الخل الثقيف، وأنها برّاقة اللون وأنها لا يقربها ذباب، وأنها تجرّد وتلذع المواضع الذي بمنزلها من البدن.

ننتقل الان الى الجزء الثاني من مداخلتنا عن اهمية مقالة المرة السوداء لابن ماسويه عند الاطباء العرب اللاحقين وفي تاريخ الطب العربي. تثير هذه المقالة مسألة اولى وهي: هل من الممكن ان تكون هذه المقالة هي نفسها كتاب المالنخوليا لابن ماسويه؟ يقدّم الرازي في كتاب الحاوي استشهاداً واحداً بكتاب المالنخوليا لابن ماسويه[1]. وذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الاطباء" ان ابن ماسويه ألف مقالتين مختلفتين احداهما عنوانها "مقالة في المرة السوداء" والثانية عنوانها "كتاب المالنخوليا". اذاً لماذا نطرح سؤالاً يتعلق بوحدة الكتابين؟ لانه قد يحدث ان تستخدم كلمتي مرة سوداء ومالنخوليا في المصطلحات العلمية كمترادفتين، ذلك أن مالنخوليا هي كلمة منقولة من حروف كلمة μελαινα χολη باللغة اليونانية الى حروف اللغة العربية. قد آحيانا يسمى الوسواس السوداوي أي المالنخوليا مرض المرة السوداء او السوداوية. من الناحية اللغوية ليس من المستحيل ان يتحوّل عنوان

1. الرازي، كتاب الحاوي، الجزء الأول ص.٧٣

ابن ماسويه في كتابه في الماليخوليا قال: سقوط الشهوة في هذه العلة رديئ لأنها تكون [sic] من اليبس وقلة الأكل تجفف جداً.

المرة السوداء إلى المالنخوليا وبالعكس. لسوء الحظ لم وصل لنا أية نسخة من كتاب الماليخوليا لابن ماسويه. نعرف من الأب بول سبات الذي ألف فهرساً في عام ١٩٣٨ ان نسخة من هذا الكتاب كانت محفوظة في مكتبة الأب الياس حكيم وأن نسخة ثانية عند الطبيب جبرائل حكيم. ولكن هذه المخطوطات مفقودة اليوم. والدليل الوحيد هو المقطع الذي نقله الرازي في كتاب الحاوي. عندما قارَنت هذا الاستشهاد بمخطوطة مشهد لم أجد مصدر الاستشهاد. فمن المستبعد ان يكون كتاب المالنخوليا ومقالة المرة السوداء نفس الكتاب.

على صعيد تاريخ الافكار الطبية تسمح لنا هذه المقالة ان نعمّق معرفة تغييرات مفهوم المرّة السوداء في القرون الوسطى. من اهم الاشياء الجديدة التي عرضها الاطباء العرب أن هناك امكانية تحوّل كل الاخلاط الى المرة السوداء اذا احترقت. زعم جالينوس ان الخلط الوحيد الذي قد يتحوّل الى المرة السوداء عندما يحترق هو المرة الصفراء. قبل قراءة مقالة المرة السوداء لابن ماسويه لم أجد نصوص تخوّلنا الاعتقاد بان فكرة هذا التحوّل ظهرت قبل الطبيب اسحاق ابن عمران الذي كتب في مقالة الماليخوليا في القرن التاسع الميلادي ان الدم والمرة الصفراء قد يولّدان المرة السوداء.

اسحاق ابن عمران، مقالة في الماليخوليا، نشر كارل غاربرس، ١٩٧٩، ص.٩٣أ-٩٣ب

وذلك أنا وجدناه يعرض لمن لا يكثر الطعام والشراب من المتفلسفين المتبتلين فإنهم يصومون النهار ويسهرون الليل. فيقلّ الدم في أبدانهم، وقلّة الدم تدعو إلى فساده واستحالته إلى المرة الصفراء، فإذا تطاول ذلك وأزمن وامتد فينبت ماديته ونداوته العذبة وصار عكراً غليظاً سوداوياً وأخرج إلى هذا المرض.

وظنت ان توسّع مفهوم المرة السوداء قد تمّ في كتاب القانون في الطبّ لابن سينا.

ابن سينا، القانون في الطبّ، بيروت، الجزء الثاني، ص.١٠٥

ويجب أن تعلم أن السوداء الفاعلة للماليخوليا قد تكون، إما السوداء الطبيعية، وإما البلغم إذا استحال سوداء بتكاثف، أو أدنى احتراق، وإن كان هذا يقل ويندر. وأما الدم إذا استحال بانطباخ، أو بتكاثف دون احتراق شديد، وأما الخلط الصفراوي، فإنه إذا بلغ فيه الاحتراق الغاية فعل مانيا، ولم يقتصر على الماليخوليا.

لكن في الحقيقة هذه الفكرة المهمة موجودة بوضوح في الجزء الثاني من مقالة ابن ماسويه. بيّن هنا المؤلف اربعة او حتى خمسة اصناف من المرة السوداء حسب الخلط الذي أنتجها: المرة السوداء التي يولدها الخلط الاسود الطبيعي المحترق والمرة السوداء التي تولدها كثرة الدم والمرة السوداء التي يولدها الدم المحترق الفاسد والمرة السوداء التي يولدها البلغم المحترق واخيرا المرة السوداء التي

تولدها المرة الصفراء المحترقة.

اخيراً تثير مخطوطة مشهد الاهتمام بتطور القاموس الطبي العربي خلال عصر النقل لا سيّما في مجال اسم امراض الجلد التي تتسبب بها المرة السوداء. وسأتناول هنا ثلاثة امثال لطرق ترجمة مختلفة ببعضها عن البعض.

ابن ماسويه، المرّة السوداء، مخطوطة مشهد طبّ ٥٢٢٢، ص.٥

إن كانت المرة السوداء المندفعة من الطبيعة الخارجة من العروق والاوراد إلى الجلد حارة، ولدت القروح المسماة الجمر التي تشبه الجمرة في حدثها وحرقتها، والسبب أيضا حمى حارة، وإن لم تكن حارة وكان خروجها وحدثها من غير أن يخالطها خلط دمي فإنها تورث في ابتداء خروجها حشواً وغلظاً او من بعد يصير سرطان، وإن كان الورم المسمى سرطانا من خلط اسود [كان] كالمرة السودا أقرح الموضع وإن لم يكن الخلط حارا ولا حريفا أحدث سرطان من غير قروح. فإن كان الخلط الاسود كالمرة السودا مخالطاً للدم أورث، في ابتداء اندفاعه إلى الجلد، جذاماً أحمر فإذا طال هذا الصنف من الجذام صار أسود.

جالينوس، كتاب المرة لبسوداء، Kühn V, 116.7-117.1

ὅταν δὲ ἅμα πυρετῷ γένηταί τι τοιοῦτον, τὸν ὀνομαζόμενον ἄνθρακα γεννᾷ τὸ κατασκῆψαν εἰς τὸ δέρμα τοῦ μελαγχολικοῦ χυμοῦ. χωρὶς δὲ πυρετοῦκατασκήπτων, ὅταν μὲν αἵματι μεμιγμένος ᾖ, τὸν ἐλέφαντα γεννᾶν πέφυκεν, ὅταν δὲ μόνος, ἐν ἀρχῇ μὲν ὄγκον ἐργάζεται μέλανα, τῷ χρόνῳ δὲ εἰς τὸν καλούμενον καρκίνον τελευτᾷ, ἐπειδάν γε δριμύτερός τε καὶ κακοηθέστερος ᾖ διαβιβρωσκομένου τοῦ δέρματος, ὅταν δὲ ἐπιεικέστερος ἕλκους χωρὶς ἐργαζόμενος τὸν ὀνομαζόμενον κρυπτὸν καρκίνον.

يفرّق ابن ماسويه بين مرض الجمر ومرض الجمرة بينما في كتاب جالينوس لا يوجد الا مرض واحد في المقابل وهو ἄνθραξ باليونانية وهو قروح ترافقها حمى.بينما اليونانيون سمو المرض باسم تشبيهي قام العرب باستخدام نفس الطريقة في تسمية المرض. سمى الاطباء اليونانيون هذا المرض ἄνθραξ لانه يشبه جمرة، وقلّد الاطباء العرب المصطلح اليوناني عندما اطلقوا على هذا المرض تسمية جَمَر او جمرة.

ـ أما في المثال الثاني هو الكلمة اليونانية ἐλέφας التي تعني فيل لم يستخدم ابن ماسويه نفس طريقة التسمية. يشبه الاسم ἐλέφας اعراض هذا المرض بالفيل لانه صنفاً من اصناف الجذام الذي يحدث بسبب كثرة المرة السوداء المختلطة بالدم رلانه جلد المريض يشبه بسببه جلد الفيل. إذاً الكلمة ἐλέφας هي صورة تشبيهية بما ان ἐλέφας تعني فيل.أما اختار ابن ماسويه مصطلح الجذام الاحمر الذي مبني على تعبير تفسيري لاعراض المرض. أما الرازي في كتاب الحاوي اختار نفس الصورة في

تسمية المرض وهو داء الفيل:

الرازي، كتاب الحاوي، الجزء الثالث عشر، ص.٧٨

قال في المرة السوداء: إن الطبيعة تروم تنقية الدم أبداً فيكون عن دفعها مرة أخلاط حارة وغليظة ورقيقة فتدفع ذلك إلى ظاهر الجسد وباطنه، فيكون من ذلك من الحارة الحمرة والآكلة وغير ذلك من نحوه وضروب الجراحات والقروح، ومن الغليظة داء الفيل والسرطان والدوالي والقروح الرديئة، وذلك أن الطبيعة تحب دائماً ألا يحصل في الأعضاء الرئيسة دم رديء وهي أيضا تدفع عن نفسها ذلك.

تطابق هذه الترجمة الكلمة اليونانية مثل ما كان الحال في كلمة جمرة.

اخيرا الكلمة اليونانية χιρσος التي تعني في هذا السياق كثرة المرة السوداء في اوردة الرِجلين وتوسّعها مترجمة إلى العربية بمصطلحين. احدهما هو قرسس أي نقل حروف الكلمة باللغة اليونانية الى حروف اللغة العربية. والترجمة الثانية هي تعرّش. هذه الترجمة ليست تقليداً وليست نقلٍ لحروف من لغة الى لغة ثانية بل تستخدم شكلاً عربياً اصلياً. يقول ابن ماسويه ان العامة تستخدم كلمة "تعرّش" والسبب في ذلك ان شكل اعراض المرض على الرجلين يشبه تعرش العنب. يشدد هنا الطبيب على ان هذه الترجمة ليست علمية بقدر كافٍ.

يقول ابن ماسويه:

"فاحدث الوجع المسمي باليونانية قرسس وهي العروق الخضر الحاسية التي تظهر في الساقين وفي الرجلين وربما تسميها العامة التعرش تشبهاً بقبضان الكرم المعرش".

وفي كتاب الحاوي يستخدم الرازي ترجمة ثالثة وهي دوالٍ تنتسب هذه الترجمة الى الجذر العربي "د و ل" الذي يحمل نفس صورة التعرّش. هنا استخدم العرب طريقة التشبيه في تسمية المرض بينما تعني كلمة قرسس تعني المرض فقط.

تدلّ هذه الاختلافات في المصطلحات على أن ابن ماسويه والرازي لم يلجآ الى نفس الترجمة من كتاب المرة السوداء لجالينوس او أن ابن ماسويه قرأ هذا الكتاب باليونانية مباشرة.

في النهاية نتمنى ان يساهم عرضنا هذا في ابراز اهمية هذه المخطوطة على صعيد تاريخ النصوص وعلى صعيد تاريخ الطبّ.